ثنائية الحنين والهجاء

فى

شعر ابن عنين

(رؤية فنية تحليلية)

دكتور

محمد عبد اللّه عباس

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله – ﷺ– وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعـــــــد،،

فالمتأمل فى شعر ابن عنين يرى أن أحسنه وأجوده جاء فـــى بابين هما الحنين والهجاء، فقد شكَّل منهما ثنائية نفسية وفنية بحيث كان ينطلق من الحنين إلى الهجاء ومن الهجاء إلى الحنـــين، فعبـــر الحنين عن القلق والمأساة المكانية والزمانية التى عاشـــها مغتربـــا بعيداً عن ترابه ووطنه، وعبر الهجاء عن القلق والمأساة والمـــرارة والتناقض والصراع واللامبالاة فى المجتمع، ومن يقرأهمـــا يجـــد أن التجربتين تمتزج بعضهما ببعض، لتكوَّن تجربة إنسانية واحدة عميقة فيها قدر من حدة الإحساس بالألم وقوة الشعور النفســـى، فـــالحنين يصدر عن نفس متعبة بعيدة عن وطنها عانت الكد والإجهاد ومفارقة الأتراب والأحباب، فنجد شعراً فيه حلاوة الموسيقى وجزالة العبـــارة ورنة الحزن الدفين التى لا تخفى، وصرخة المغتـــرب، والإحســـاس بالغربة التى يشتد أوارها فى النفس بينما يصدر الهجاء عـــن تلـــك النفس المتعبة المغتربة بسخطها وحقدها على المهجو خاصة أنه يقيم فى الوطن الذى نفى منه الشاعر أو كان سبباً فى نفيه، فترى شـــعراً يقوم على البساطة فى التعبير، واختيار الصور الغاضبة الملائمة التى تندفع فى الهزل وتجتهد فى الفكاهة والتهكم واللوذعية وعدم الوقـــار

والتندر وعدم التعفف فى ذكر ألفاظ السوقة وعبارات العامـــة، فهـــو يضحك قارئ شعره من تلك الملـــح وحماقـــات النـــاس وأخطـــائهم وسخافاتهم وصيد زلاتهم، ويبكيه من شدة شـــوقه وحنينـــه ووفائـــه وولائه للديار التى عاش فيها، وقد انعكس كل ذلك من خلال تجربـــة إنسانية صادقة مزجت الفنين مزجا ظهرت فيه الكثير مـــن الظـــواهر الثنائية كما سيتضح فى الصفحات التالية.

والله الموفق

د/ محمد عبد الله عباس

التمهيـــــد

ابن عنين (٥٤٩هـ - ٦٣٠هـ = ١١٥٤م - ١٢٣٢م)

يقول ابن خلكان فى التعريف به هو[١]: "أبو المحاسن محمد بن نصر بن الحسين بن عُنين الأنصارى، الملقب شرف الدين، الكـوفى الأصل الدمشقى المولد الشاعر المشهور، كان خاتمة الشعراء لم يأت بعده مثله، ولا كان فى أواخر عصره من يقاس به، ولم يكن شـعره مع جودته مقصوراً على أسلوب واحد بل تفنن فيـه، وكـان غزيـر المادة من الأدب مطلعا على معظم أشعار العرب، وبلغنى أنـه كـان يستحضر نقل كتاب الجمهرة لابن دريد فى اللغة، وكان مولعاً بالهجاء وثلب أعراض الناس، وله قصيدة طويلة جمع فيها خلقاً من رؤسـاء دمشق سماها (مقراض الأعراض) وكان السلطان صـلاح الـدين – رحمة الله تعالى – قد نفاه من دمشق بسبب وقوعه فى الناس فلمـا خرج منها عمل:

فعـلام أبعـدتم أخـا ثقـة ... لـم يجتـرم ذنبـا ولا سـرقا

أنفـوا المـؤذن مـن بلادكـم ... إن كان ينفى كل من صدقا

وطاف البلاد من الشام والعراق والجزيرة وأذربيجان وخراسان وغزنة وخوارزم وما وراء النهر، ثم دخل الهند واليمن وملكها يومئذ سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين – رحمـه الله تعالى – وأقام بها مدة ثم رجع إلى الحجاز والـديار المصـرية،

---

(١) انظر وفيات الأعيان جـ٥ ص ١٤ إلى ص ١٨.

وعاد إلى دمشق، وكان يتردد منها إلى البلاد ويعود إليها، ولما مات السلطان صلاح الدين وملكَ الملكُ العادلُ دمشق كان غائبا فى السفرة التى نفى فيها، فسار متوجها إلى دمشق، وكتب إلى الملك العادل قصيدته الرائية يستأذنه فى الدخول إليها ويصف دمشق ويذكر ما قاساه فى الغربة، ولقد أحسن فيها كل الإحسان واستعطفه أبلغ استعطاف، وأولها:

ماذا على طيف الأحبه لو سرى وعليهم لو سامحونى بالكرى

ووصف فى أوائلها دمشق وبساتينها وأنهارها ومستنزهاتها ولما فرغ من وصف دمشق قال مشيراً إلى النفى:

فارقتها لا عن رضا وهجرتها لا. عن قلى، ورحلت لا متخيرا

أسعى لرزق فى البلاد مشتت ومن العجائب أن يكون مقترا

وأصون وجه مدائحى متقنعا وأكف ذيل مطامعى متسترا

ومنها يشكو الغربة وما قاساه فيها:

أشكو إليك نوى تمادى عمرها حتى حسبت اليوم منها أشهرا

لا عيشتى تصفو ولا رسم الهوى يعفو ولا جفنى يصافحه الكرى

أضحى عن الأحوى المريع محلاً وأبيت عن ورد النمير منفرا

ومن العجائب أن تفيا ظلكم كل الورى ونبذت وحدى بالعرا

فلما وقف عليها الملك العادل أذن له فى الدخول إلـــى دمشـــق، فلما دخلها قال:

هجـــوت الأكـــابر فـــى جلـــق ورعت الوضيع بهجو الرفيع

وأخرجـــت منهـــا ولكننـــى رجعت على رغم أنف الجميع

ولم يكن له غرض فى جمع شعره[1]، وكان من أظرف الناس، وأخفهم روحا وأحسنهم مجونا، وله بيت عجيب من جملـــة قصـــيدة يذكر فيها أسفاره ويصف توجهه إلى الشرق وهو:

أشـقق قلـب الشـرق حتـى كـأننى أفتش فى سودائه عن سنا الفجر

وبالجملة فمحاسن شعره كثيرة، وكان وافر الحرمة عند الملوك وتولى الوزارة بدمشق فى آخر دولة الملك المعظم ومدة ولاية الملك الناصر ابن المعظم وانفصل عنها لما ملكها الملك الأشرف، وأقام فى بيته ولم يباشر بعدها خدمة، وكانت ولادته بدمشق يوم الاثنين تاسع شعبان سنة تسع وأربعين وخمسمائة وتوفى عشـــية نهـــار الاثنـــين العشرين من ربيع الأول سنة ثلاثين وستمائة بدمشق أيضـــا، ودفـــن من الغد بمسجده الذى أنشأه بأرض المزّة وهى قرية على باب دمشق – رحمة الله تعالى"[2].

---

(١) وذلك بسبب أهاجيه الفاحشة.

(٢) وفيات الأعيان جـــ ٥ ص: ١٤ إلى ص: ١٨، وينظر النجوم الزاهرة جـــ ٦ ص: ١٦٣، ١٦٤، ٢٨٢، وشذرات الذهب جـــ٥/ ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، والعبر فى خبر من غبر جـــ ٣/ ٢٠٨، ٢٠٩، وسير أعلام النبلاء جـــ ٢٢/

❖ سبب نفيه: تجمعت عدة أسباب كانت وراء نفى السلطان صلاح الدين الأيوبى لابن عنين من دمشق وهى:

- بذاءة لسانه وفحشه ووقوعه فى أعراض الناس حتى أنه لم يسلم منه أحد، وقد حُمل هجاؤه وجهاً صريحا لهذا الولوع بسب الناس وشتمهم.

- هجاؤه لصلاح الدين الأيوبى شخصياً بلا خوف أو تورع منه، بل أنه أفحش وتمادى فى غيه نحوه، يقول فى هجائه وهجاء رجال دولته[1]:

سلطاننا أعرج وكاتبه ذو عمش والوزير منحدب

وصاحب الأمر خلقه شرس وعارض الجيش داؤه عجب

يبيت من حكة تؤرقه فى دبره كالسعير تلتهب

وحاكم المسلمين ليس له فى غير غرمول أسود أرب

وما كان لابن أيوب أن يرى ويسمع ذلك ويتركه فى دمشق فأمر بإخراجه ونفيه بعد أن تيقن من فجره وعبثه وشناعة قوله، فكانت سقطه من ابن عنين لم تغتفر ولم يجد لها ردا، وربما كان

٣٦٣، وتاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ص: ٤١١، ٤١٣، والبداية والنهاية جـ١٧، ٢٠٧، ٢٠٨ ومعجم المؤلفين جـ ١٢/ ٧٩، والأعلام جـ ٧/ ١٢٥، ١٢٦.

(١) الديوان ص: ٢١٠.

يرى فى صلاح الدين أنه كأى سلطان فى بداية أمره، وأنـــه لا خيـــر على يديه للمسلمين كبقية سلاطين الشام الضعفاء فى عصره ولكنـــه لم يدر أن الخير كل الخير سوف يكون على يديه، وهل أقول إن ابـــن عنين كان يرى فى صلاح الدين أنه ليس من أهل دمشق، وأنه كـــان مغتصبا لحكمها، فقد كان ابن أيوب من بلاد العراق تكريتياً، ولـــذلك ترى من الغريب أن الشاعر كان فيه إصرار على موقفه منـــه، فلـــم يذكر أى شىء عن انتصاراته فى حطين ونصرة المسلمين على يديه، بلا لا تجد رثاء لهذا السلطان الذى حرر بيت المقدس ورد الصـــليبين إلى ديارهم.

ويرى مقدم ديوانه أن أحد المقربين من صـــلاح الـــدين وهـــو الموفق بن المطران الذى هجاه ابن عنين وسخر منه هو الذى حرض صلاح الدين على نفيه[1] ولا أتفق معه الرأى فما كان من الســـلطان أن يستمع إلى وشاية أو يأخذه بالظنة وأمامه الحجة والبرهان عليه، ويؤكد عدم ظلمه فى أبعاده وطرده من دمشق أنـــه كـــان "يحتضـــن الأدباء والعلماء ويصاحبهم ويحتفى بالوافدين عليه منهم، ويعقد لهم المجالس، ويستمع إليهم فى وجوه القول بالإضافة إلى أنه كان حافظا للقرآن وصاحب ذوق لطيف فى رواية الشعر وحفظه، وجمع بلاطـــة جمهرة من العلماء والشعراء والكتاب كالقاضى الفاضل وابن شـــداد

(١) الديوان ص: ٦.

الكاتب، وكان الشعراء والكتاب فى عهده وعهد أبنائه من بعده فى نعمة ورفاء ورعاية"[١].

ويقوى من النظرة إلى أن صلاح الدين نفاه لبذاءة لسانه وفحشه فى هجائه أمران أولهما: ما قاله العماد الأصفهانى عنه حيث يقول: "ومجالسه منزهة من الهزء والهزل، ومحافله حافلة بأهل الفضل، وما سمعت له قط كلمة تسقط ولا لفظه فظة تسخط"[٢]. ثانيهما: أنه لم ولم يفرض عليه بلداً يخرج إليها بل جعل له الاختيار فى الذهاب أنى يشاء فكان عادلاً فى حكمه عليه.

- ضيقه بالفروض المكتوبة، فقد كان يضيق بالصلوات الخمس وأدائهن ويرجع ذلك إلى ضجره من الأشياء الملزمة وحده طبعه ومزاجه المتقلب وما كان صلاح الدين الأيوبى يخفى عليه هذا وكذلك بعض قضاته ووعاظ دمشق، ولذلك ترى هجواً كثيراً لهؤلاء الفقهاء والوعاظ والقضاة. يقول فى الصلوات الخمس[٣]:

يا أولى العلم خبرونى فإنى ضاق ذرعى وضل ثاقب فهمى

عن ثلاث لزمننى أخوات مفصحات نيطت بثنتين عجم

---

(١) ينظر دراسات فى الأدب العربى فى ظل الدولة الأيوبية ص: ٢٦.

(٢) الفتح القسى فى الفتح القدسى ص ٦٥٦.د/ناطم رشيد ط اولى ١٤٢٥- ٢٠٠٤ طـ دار المناهج

(٣) الديوان ص ١٦٦، ١٦٧. أعضاى بمعنى أعضاء ويقال للجزء من الشاة عضى، فهو يصور تعبه من القيام بالصلاة بتقطيع أجزاء الشاة المذبوحة.

فـاعجبوا مـن عجـائز لزمتنـى كـل يـوم إتيـانهن برغمـى

لا ينجى الفرار منهن فى البحـ ـر ولا فـــى ذرى الجبال الشم

ولـو أنـى طلقـتهن تسربلـ ـت بعـار الـدنيا وبـوَّت بـإثم

ويـم أعضاى من زواج النصارى بسـوى المـوت لا يفـرج همـى

فهو يشير إلى الصلوات الجهرية والصامتة، وتبـدو سـخافة الشاعر فى أنه قرن الصلوات الخمس فى لزومها ووجوبها بـالزواج لدى النصارى حيث أنه لا يفرق بين الزوجين إلا مفارقة الحياة؛ لأنه لا طلاق لديهم.

– تجاوز الأمر إلى هجاء العديد من رجالات بنى أيوب، وهجاء من يمدحهم أو يعضد من شأنهم، يقول فى الملك العادل سيف الـدين أبى بكر محمد بن أيوب، فعابه بالجشع والبخل والجبن[1]:

إن سـلطاننا الـذى نرتجيـه واسـع المـال ضـيق الإنفـاق

هـو سيف كما يقـال ولكـن قـاطع للرسـوم والأرزاق

ويهجو الشاعر نجيب الدين ياقوت بن عبد الله الذى كان يمدح الملك المعظم ويؤيده[2]:

أتـاك النجيـب بأشـعاره هـو البعـر لكنـه مُـذْهَبُ

(١) الديوان ص: ٢٣٩.
(٢) الديوان ص: ٢١٣.

ويحلف بالله ما قصده نوالا ولكنه يكذب

وقوله: (هو البعر) استخفاف ورمى الممدوح بالقذارة والضمير فى: (أتاك) للملك المعظم.

أما هو فيرى علة هجائه غير ما سبق حيث يقول[1]:

ووالله ما فارقتها عن ملالة سواى عن العهد القديم يحول

ولكن أبت أن تحمل الضيم همتى ونفس لها فوق السماك حلول

وأرى أنه لم يكن صادقاً فى ذلك فقد هجا سلطان المسلمين صلاح الدين بن أيوب وأبناءه، وكان يقع عمداً فى أعراض الناس خاصهم وعامهم، وهذا هو السبب وراء طرده من دمشق، فأية همة وأية نفس يتحدث عنها فى هذه الناحية.

بواعث حنينه وهجائه:

تكونت لدى ابن عنين العديد من البواعث التى جعلته ينطلق بنظمه إلى فنى الحنين والهجاء منها:

- تغربه عن وطنه بعد طرد السلطان صلاح الدين الأيوبى له.
- كان ذا نفس قلقة ثائرة لا يرضيها أى شىء كما يتضح من شعره.
- أنه رأى أن معايب الناس أكثر من محاسنهم، وهذه نظرة متشائمة.

---

(١) الديوان ص ٧.

- مفارقته لوطنه غير راض عن ذلك الفراق.
- كان حاد المزاج فيه كبر وأنفة، فقد أغضبه النفى وأشعره بمرارة الإهانة، مما جعله يصب جام غضبه على من بوطنه الذين لم يقفوا بجانبه فى محنته، أو كان لهم سبب مباشر أو غير مباشر فى نفيه أو استراحوا ببعده عنهم.
- تشكل فى نفسه عاملان عامل صدمة الغربة وهزتها لنفسه وزاد من ذلك عدم تكيفه مع حياته الجديدة بعيداً عن وطنه ومن هذا نبع الحنين، وعامل العصيان الذى نتج من تذمره وغضبه من طرده وإحساسه بأنه اغتُصب من دياره ورُمى به بعيداً ونشأ من ذلك الهجاء.
- إحساسه بالمسئولية تجاه وطنه، فحن إليه وهجا من لم يعجبه من الكبار.
- شعوره بفقدان الاحترام الذى كان يلقاه فى وطنه، فأصبح تتقاذفه البلدان، فحن تارة وهجا أخرى.
- ويقول مقدم ديوانه الأستاذ خليل مردم "وابتدأ يقول الشعر سنة خمس وستين وخمسماية وهو ابن ست عشرة سنة، وكان ذلك فى عهد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى ونور الدين أشبه بعمر من عبد العزيز فى عدله وتقواه، يقرب العلماء الأتقياء ولا يقبل على الشعراء، ولعل إهمال نور الدين للشعراء كان من أشد العوامل فى توجيه ابن عنين فى شعره، وحرصه على النقد والغمز واللمز، وتهيئته

لأن يكون من كبار الهجائيين المعدودين على استعداد فطرى شديد"[1].

ويقدم الدكتور شوقى ضيف باعثا آخر لشعر الهجاء عند ابن عنين وهو حقارة نسبه حيث يقول: "ولا نعرف الأسباب التى جعلته يتجه بشعره فى بواكير حياته إلى الهجاء، ربما كان عدوانياً بطبعه، وربما رجع ذلك إلى أنه نشأ فى أسرة متواضعة، وأن أباه لم ينشئه على حب الخير والشعور بالمروءة والكرامة والرغبة فى التسامى وطلب المعالى، وقد صرح بذلك فى بعض شعره قائلاً فيه[2]:

وجنبنى أن أفعل الخير والد ... ضئيل إذا ما عُد أهل المناسب

بعيد عن الحسنى قريب من الخنا ... وضيع مساعى الخير جم المعايب

إذا رمت أن أسمو صعودا إلى العلا ... غدا عرقه نحو الدنية جاذبى

ويبدو أنه أراد بهجائه للناس الانتقام لضعة أسرته وأبيه[3]." وهو فى ذلك يقترب من الحطيئة الذى هجا أباه وغيره من الناس.

- متاعبه فى النفى، فقد حلَّ ببلاد كثيرة يبتغى الرزق، ولكنه كان غير موفق، وأحسب أن ذلك عدم توفيق ذاتى مع الحياة الجديدة، فقد تاجر واكتسب من المال ما يكفيه، ولكن نفسه الحزينة على فراق دياره كانت غالبة عليه، وكان بإمكانه أن ينال العطايا

---

(١) ديوان ابن عنين ص: ٥٠.
(٢) ديوان ابن عنين ص: ٢٣٩.
(٣) عصر الدول والإمارات – مصر – الشام ص: ٧١٨، ٧١٩.

والنوال من المدائح فى هذه البلاد التى نزلها، لكنه أبى، فقد كان وما زال لديه بنى أيوب هم الأجدر بالمدح يقول[1]:

أسعى لرزق فى البلاد مفرق ومن البلية أن يكون مقترا

ولقد قطعت الأرض طوراً سالكا نجدا وآونة أجدُّ مغورا

وأصون وجه مدائحى متقنعا وأكف ذيل مطامعى متسترا

ومن المعروف أن المتاعب والمشاق تجعل صاحبها يتذكر نوعين من البشر من أحب ومن كره، وقد نشأ منها تذكره لوطنه، فحن له حنيناً جما، وتذكر الذين يبغضهم فانتقم منهم بجارح القول.

علاقة الحنين بالهجاء فى شعر ابن عنين

من قرآءة شعرى الحنين والهجاء عند ابن عنين تستخلص عدة علاقات تربط بين الفنين كما سنوضح فيما يأتى من صفحات البحث.

- فى الهجاء نوع من القصاص والعقوبة والثأر من هؤلاء القائمين على شئون دمشق التى أحبها ونفى منها.
- فى الهجاء إعادة التوازن النفسى لشخصيته التى فقدت موطنها وسجنت فى بلاد بعيدة، ورغبة فى التسلية والتسرية.
- اتخذ الهجاء وسيلة لنقد الأفعال والسلوك فى الحياة الاجتماعية التى انكشفت له بعد تركه بلده.

---

(١) الديوان ص: ٥.

- استعمل الهجاء وسيلة لتأديب بعض الذين أراد أن يستخف بهم وهم الأجدر بترك دمشق لا هو.

- نقد العادات والتقاليد البالية فى المجتمع، ومحاولة القضاء على هذا الجيل من الناس فى نظرة الذين ما زالوا يعيشون فى دمشق موطنه وهم أساس البلاء فيها.

- الهجاء كان وسيلة لهروب نفسه من هموم الغربة، وكأنه كان ضربا من استرخاء وراحة النفس من مشاق البعد عن الوطن الذى يحن له دائماً.

- الرغبة فى العيش فى عالم آخر بعيداً عن آلام الغربة هذا العالم هو عالم الهجو والفكاهة، وهذه الرغبة تبعده عن تبعات الحياة القاسية فى المنفى الذى طغى وزاد فيها الحنين شعوراً وقولا.

- وجود آخرين يراهم من وجهة نظره يستحقون النبذ والاستهزاء والطرد بدلاً منه، وهو بذلك لا يعزل نفسه عن رصد أفعال هؤلاء فهو لا يعجبه أفعالهم وفى نفس الوقت لا تعجبه حاله فى المنفى.

- اتخذ الهجاء مجالاً للتعبير عن الكبت فى المنفى وتنفيساً عن انفعالاته، ومن هنا ارتبط الحنين بمأساته فحب الوطن كامن فى نفسه ومأساته هى التى تولد منها الحنين والهجاء معاً.

- اتخذ الهجاء وسيلة للعب واللهو بهؤلاء الذين يهجوهم، وتسرية للاشعور واللاوعى الذى سيطر عليه الحنين.

- **كان حب الوطن والميل إلى الهجاء والدعابة جـزء مـن كيانـه النفسى.**

الحـــــنين

- **تجلى الحنين عند ابن عنين فى المظاهر الآتية:**

الحنين إلى طبيعة دمشق: لقد افتن ابن عنين بطبيعـــة وطنـــه حيث سحرت لبه؛ لما تتمتع به من مظاهر طبيعيـــة متعـــددة، فعلـــى ربوعها كانت ملاعب الصبا ومواطن الذكرى، فلما ابتعد عنها ألهبت الغربة مشاعره، ففاض بالشوق والحنين لها، وأصـــبحت لديـــه أداة ومتنفسا للتعبير عن حنينه وغربته.

يقول وهو بنيسابور وقد تذكر طبيعة وطنه[1]:

ما سر سكان الحمى بمذاع ∴ عندى ولا عهد الهوى بمضاع

أين الحمى منى سقى الله الحمى ∴ ريا وكان له الحفيظ الراعى

ومنازلا بين البقاع وراهط ∴ أكرم بها من أربع وبقاع

كم بات يلهينى بها مصنوعة الـ ∴ ألحان أو مطبوعة الأسجاع

إنسية بيضاء أو أيكية ∴ ورقاء عاكفة على الترجاع

كحلاء ضاقت عن إجالة مرود ∴ وجراحها فى القلب جد وساع

ومدامة لم يبق طول ثوائها ∴ فى خدرها إلا وميض شعاع

من كف مصقول العوارض آنس ∴ يرنو بمقلة جؤذر مرتاع

وقفت عقارب صدغه فى خده ∴ حيرى وباتت فى القلوب سواعى

راضت خلائقه العقار وبدلت ∴ نزق الصبى بموقر مطواع

فى روضة نسجت وشائع بردها ∴ كف السحاب وأى كف صناع

حلت بها الجوزاء عقد نطاقها ∴ فتباشرت بالخصب والإمراع

وعلا زئير الليث فى عرصاتها ∴ ما بين طرف واكف وذراع

---

(١) الديوان ص: ٢٢، ٢٣.

فالشاعر على حفظه للعهد يتحسر على تركه لوطنه، ويتشوق لتلك الطبيعة التى تركها، والغرض من الوصف هنا حنين الشاعر وفخره بهذه الطبيعة الجميلة.

وقد جمع رموزاً كثيرة فى الأبيات لحب وطنه، فالمغنية التى ربما تغنت بأبيات فى حب الوطن، والورقاء التى تشدو على الشجر حبا لحياتها فى هذه الأرض، والخمر التى هى رمز للنشوة الوطنية ورمز لكل ما يذاق أو يطعم فى وطنه.

والروضة التى كنى بها عن خصوبة وكثرة مرعاها حين ينبت فيها ضروب شتى من العشب والزهر؛ فهى أرض طيبة المنبت، وزاد من جمالها نزول المطر عليها، فكانت أكثر نماء، وزادها خصبا وجود البرق والرعد؛ دلالة على شدة الغيث وتواتر القطر على فترات حتى بلغت غاية الارتواء.

وانظر لهذا التصوير الجمالى فى قوله: (كف السحاب) وما فيه من إيحاء بحنو وعطف المطر، فقد صور لك السحاب بإنسان يحنو ويعطف على من يرعاه ويحبه، ويوصل له الغذاء بيديه فى رفق وهدوء وسكينة بلا بطش أو إيذاء، أى أن هذا المطر لا يؤذى هذه الأرض وهو رمز لافتقاده لهذا العطف والحنو فى غربته وتمنيه له فياليت كفاً حانية تمتد إليه!.

ثم صور لك نجم الجوزاء بامرأة جميلة حلت نطاقها كناية عن الإقامة والحلول؛ لأن حل النطاق لا يكون إلا فى مكان الإقامة والعيش، أى أن نجم الجوزاء قد لازم هذه الأرض ولم ينشغل بغير

طبيعة سواها، فسرى فيها الخصب وزادت نداوة النبت وحسنه وطراوته ويااليته أيضاً يقيم فى وطنه ويحل فيه كالجوزاء.

وينقل صورة أخرى عن طريق السمع فى قوله: (علا زئير الليث) فهو يدعو القارئ أو السامع ليرى بعينه ما سبق ثم يتأمل ويسمع بأذنيه الخوف والرهبة المصاحب لجمال طبيعة وطنه، فهى طبيعة حماها الله بالأسود والليوث التى ترهب من يقترب منها، وهى رمز لقوة ومنعة وطنه، وبأس رجاله الذين هم على استعداد للتربص بكل عدو لافتراسه والفتك به.

إذاً فالشاعر قد أعطى لطبيعة وطنه الجمال والقوة؛ فهى طبيعة تقوى عزيمته وقدرته فى المنفى فى الوقت الذى زادته وجداً وحزناً على فراقها.

ومن اللوحات الفنية للحنين لطبيعة دمشق وصفه للخمر المصحوب بوصف الروضة، يقول [1]:

تسعى بصافية معتقة ۞ تبدو لنا فى الكأس كالشعل

هجرت بلوذانا مهاجرة ... وتنصلت من غلظة الجبل [2]

وتعتقت فى آبل حقبا ... لم تمتهن مزجا ولم تذل [3]

ودنت كأن شعاعها قبس ... باد وإن جلت عن المثل

(١) الديوان ص: ٤١، ٤٢.

(٢) بلوذان: مصيف بدمشق.

(٣) آبل: قرية فى وادى بردى.

فى روضة عنى الربيع بها فأبان صنعة علة العلل

وكأن آذارا تنوق فى حاك من حلل لها وحلى

وكأنما فرشت بساحتها فرش الزمرد راحة النفل

وكأن كف الجو من طرب نثرت عليها أنجم الحمل

شق الشقيق بها ملابسه حزنا على ديباجة الأصل

خطب الهزار على منابرها فاعجب لأعجم مفصح غزل

ودعت حمائمها مرجعة فوقفت فى شغل بلا شغل

فكأن فى أغصانها طربت فتأودت كالشارب الثمل

جر النسيم بها مطارفه فتنفست من عنبر شمل

هم الأقام بلثم نرجسها فثنى له ليتا ولم يطل

إن الخمر فى هذا المشهد رمز لخروجه من دمشق، وهى فى ذاتها رمز لحبه لها، حب لم يمتهن ولم يذل، مثل تلك الخمر المعتقة يصور ذلك البيتان الثانى والثالث.

وبالنظر فى الأبيات التى صورها الخمر نجد الخمر هنا تصور لحظات المتعة التى افتقدها بالبعد عن وطنه، فهو يصور لك لحظات الغرام والتشوق لها بلحظات الظفر والتشوق للوطن، فكما أن الإحساس بشرب الخمر يصاحبه اللذة والمتعة والنشوة كذلك صورة العودة لوطنه تمثل له هذه المشاعر أيضا.

وتعالى معى ومع الشاعر أيها القارئ الكريم وانظر إلى تصوير الخمر فى قوله فى أول التصوير: "تبدو لنا فى الكأس كالشعل" وفى آخره: "ودنت كأن شعاعها قبس" فهو يصور الخمر بالشعل أى لهب النار، وهو لا يقصد اللون الأحمر فقط بل الإثر النفسى، فكلمة (كالشعل) تعكس ما بداخله من لظى المغترب وحرقته كما يقال فلان يكتوى بنار الغربة، إلا ترى وتقر أن النار تكوى وتشوى وتحرق، وهو وإن كان يصور جو المرح والمنظر البهيج بلون الخمر إلا أنه ينقل بشاعة وترويع النفى وقسوة الحال التى أصبح المنفى فيها كالملقى فى النار، ولذلك لا ننسى أن الشاعر فيه إصرار وتأكيد على هذا الإحساس إحساس الاكتواء بالنار، فيذكر فى آخر وصفه للخمر كما سبق: (كأن شعاعها قبس) إن النار التى اشتعلت سابقا تحولت إلى قبس وجمر.

وإذا انتقلنا إلى وصف الروضة فلابد أن ننظر إلى وصفها الجمالى من شاعر صهرته محنة الاغتراب، فهو لا يصورها للتمتع ولا للتفنن فى التصوير ولا للتغنى بمفاتنها وبهجتها وأنسها، بل إنه يصورها بغرض إلقاء أفراحه وأحزانه عليها، إنه شاعر اعتصرته لوعة الغربة، فكانت تجربته فى هذا الوصف عصارة نفسه المكلومة المتلهفة على العودة، ولنأخذ على ذلك مثالا كقوله "شق الشقيق بها ملابسه" و"فكأنه قلب تصدع عن سودائه" إنها صور قاتمة حزينة بعيدة كل البعد عن الحبور والسعد، كلها شجن لا تناسب جمال وصف الطبيعة، بالإضافة إلى أنها تثير الشؤم فى النفس لسوء ما تنذر به

كأنه فقد عزيزاً عليه، فتصدع قلبه وشقت ملابسه إنها صورة الشاعر لنفسه، رجل قلبه محطم مشقوق الثياب تملئه الأحزان لبعده عن دياره. إذاً الشاعر وإن أراد وصف الخمر والروضه إلا أن الغرض الأصيل هو نقل شعوره فى الغربة فى وصف جمالى يمجد به وطنه.

ومن صور الحنين إلى وطنه ذكره لليل والشكوى من طوله، يقول من قصيدة يحن فيها إلى دمشق وهو فى اليمن[1]:

حنين إلى الأوطان ليس يزول ... وقلب عن الأشواق ليس يحول

أبيت وأسراب النجوم كأنها ... قفول تهادى إثرهن قفول

أراقبها فى الليل من كل مطلع ... كأنى برعى السائرات كفيل

أما لعقود النجم فيه تصرم ... أما لخضاب الليل فيه نصول

كأن الثريا غرة وهو أدهم ... له من وميض الشعريين حجول

ففى البيت الأول يشير إلى ثبات حنينه وشدته لوطنه؛ ذلك أنه قال: (ليس يزول) و(ليس يحول) ولم يقل: (لا يزول) و(لا يحول) لأن (لا) حرف نفى غير محدد بزمن بخلاف (ليس) التى تشير إلى النفى فى الماضى، فهى هنا تفيد تحقيق نفى الزوال إذ كان نفياً فى الماضى، وإسنادها للفعل المضارع (يزول) و(يحول) يفيد استمرار عدم الزوال فى الحاضر والمستقبل، فكأنه نفاه أبداً، أى أن حنينه

(١) الديوان ص: ٦٨، ٦٩.

ثابت لم يتغير ماضيا ومستقبلاً. وتقديم النكرة فى: (حنين) و(قلب) لتعظيمهما وعلو شأنهما وتبع الحنين بلفظة قلب لأنه محل الألم والشعور فى الغربة .

وفى البيت الثانى صور طول الليل بأن نجومه تشبه (القفول) وهو الجند الذين عادوا بعد الغزو واستقروا فى المعسكر لا يبرحونه، ومن المعلوم أن الجند لا يتركون معسكرهم إلا لمعركة جديدة قد تكون هذه المعركة بعد أشهر أو سنين أو لا تكون هناك معركة أصلا، فهم لازمون مقيمون أيام طويلة. فالنجوم ثابتة لا تتحول مثل هؤلاء الجند. أو تشبه القافلة التى رجعت من رحلتها وأقامت فى الحى، ومن المعروف أيضا أن القوافل لها زمن معلوم فى السفر وترك الديار قد يكون من موسم إلى آخر أو من فصل إلى فصل أو من سنه إلى أخرى، فأهلها يقيمون طويلا فى المنازل.

ويلاحظ ارتباط الشاعر فى تصوير طول الليل بالزمن المضارع أو الحاضر؛ لأن الحاضر يمثل لحظات المعاناة التى يعيشها. ففى الأبيات تجد: (يزول، يحول، أبيت، تهادى، أراقبها، يؤول، تصرم).

والليل فى الأبيات ليس زمناً كونيا بل هو زمن نفسى يمثل المتاعب والمعاناة والغربة والقهر، وهو لا يستطيع الهروب منه؛ لأن الغربة أصبحت واقعا لا يمكن إنكارها، ويحاول الشاعر أن يبدد ظلام الليل للبحث عن باب للنجاة والخروج إلى النور الذى يعادل الحرية والرجوع إلى الأوطان، لكن الخوف والقلق يتغلب عليه، لأنه حينما

يختلى بنفسه يرى أنه يعيش فى ليل الهموم والأحزان ويجد فيه وطنه الضائع.

إن الشاعر مع صحبة الليل ينزف دموع الاغتراب، ويتمنى نهاية لهذه الهموم، ولذا أعقب تصوير الليل بطلب العودة لتكشف الأبيات عن جوهرها فى الحنين يقول[١]:

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة … وظلك يا مقرى على ظليل[٢]

وهل أرينى بعد ما شطت النوى … ولى فى ربى روض هناك مقيل

ويلاحظ فى البيتين السابقين تركه لزمن الليل، وانتقاله لزمن آخر هو النهار الذى يمثل أمنية العودة للوطن ويتبين ذلك من المفردات (ظلك، ظليل، مقيل) والظل والظليل والمقيل لا يكون إلا فى وضح النهار وإضاءة وانتشار الصبح.

وتهب عليه نفحة عنبرية وهو بالهند، فتذكره بنسيم وطنه، ويعجب كيف سار إليه واجتاز البحار والقفار، فياله من نسيم وفىّ يعرف موطن محبه وخله يقول[٣]:

ألا يا نسيم الريح من تل راهط … وروض الحمى كيف اهتديت إلى الهند

تسديتنا والبحر دونك معرض … وبيد تحاماها جوازى المها الربد

فأصبح طيب الهند يخفى مكانه … حياء ولا يبدو شذا العنبر الورد

أأهل الحمى خصوك منهم بنفحة … فأصبحت معتل الصبا عطر البرد

---

(١) الديوان ص: ٦٩.

(٢) مقرى: من قرى دمشق.

(٣) الديوان ص: ٧٣.

ويرى سنا البرق فيتذكر وطنه قائلاً[1]:

أهاجك شوق أم سنا بارق نجدى ... يضئ سناه ما تجن من الوجد

تعرض وهنا والنجوم كأنها ... مصابيح رهبان تشب على بعد

حننت إليه بعدما نام صحبتى ... حنين العشار الحائمات إلى الورد

يذكرنى عصراً انقضى على الحمى ... وأيامنا فى أيمن العلم الفرد

وإذا أم عمرو كالغزالة ترتعى ... بوادى الخزامى روض ذات ثرى جعد

ويلاحظ ارتباطه بالتغنى بنجد ملهمة الحنين لدى الشعراء القدامى التى دائما ما ربطوها بالريح والنسيم العليل القادم من الشرق، وكثيراً ما بثوها أحزانهم وآلامهم وجعلوها موطنا للحنين والذكرى، وهو يذكرها لأنها تمثل فى أفئدة الشعراء القدماء الوطن المفقود وموطن الجمال حتى ولو لم يكونوا مغتربين، إذا فذكرها هو ذكر الرغبة فى العودة للوطن. وأم عمرو فى البيت الأخير ما هى إلا رمز لدمشق،

(١) الديوان ص: ٧٢.

ويقول فى دمشق أيضاً[1]:

دمشق فبى شوق إليها مبرح وإن لج واش أو ألم عذول

دياربها الحصباء در وتربها عبير وأنفاس الشمال شمول

تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق وصح نسيم الروض وهو عليل

فيا حبذا الروض الذى دون عزتا سحيرا إذا هبت عليه قبول

ويا حبذا الوادى إذا ما تدفقت جداول با ناس إليه تسيل

وفى كبدى من قاسيون حزازة تزول رواسيه وليس تزول

إذا لاح برق من سنير تدافقت لسحب جفونى فى الخدود سيول

فهو يرى فى مظاهر الطبيعة الدمشقية من نسيم، وريح وبرق وطيف، وروض، وماء وجداول وأنهار، وجبال أنها أوفى عهداً به من البشر، وهى لا تزال تعاوده وتعوضه مرارة الفقد وفى البيتين الأخرين تأكيد على هذا الشعور.

ويتشوق إلى أهل بدمشق فيقول[2]:

يا برق حى إذا مررت بعزتا أهلى وإن زادوا جفا وتعنتا

أبلغهم عنى السلام وقل لهم أحبابنا هذا الصدود إلى متى

---

(١) الديوان ص: ٦٩.

(٢) الديوان ص: ٨٦.

طـال انتظـارى للتلاقـى فـاجعلوا لصـدودكم أجـلا يكـون موقتـا

كـم أحمـل الشـوق المبـرم والأسـى لـو كـان قلبـى صـخرة لتفتتـا

يـا سـادة فارقـت يـوم فـراقهم عقلـى وطلقـت السـرور مبتتـا

أحبابنـا بدمشـق دعـوة نـازح لعبت به أيدى النوى فتشتتا

فأهل دمشق كلهم أهله، لكنهم لم ينصروه، أما هو فما زال على عهد الوفاء لهم، ويلاحظ أن الشاعر أكثر من استخدام أساليب النداء والأمر والاستفهام وكثره الكلمات التى تشتمل على المد مثـل: (يـا برق، إذا، زادوا، جفا، تعنتا، أحبابنا، إلى متـى، طـال، انتظـارى، لتلاقى، يا سادة، فراقهم) والمد يوحى بامتداد الأسى واتساعه وطول اللهفة والشوق وكأنه يناجى هؤلاء من مكان بعيـد، لكنـه لا يجـد مجيبا، وعبارة (طلقت السرور مبتتا) عبارة فقهية جافية سخيفة ليس موضعها الشعر والوجدان خاصة الحنين والشوق.

ويلاحظ مع أن الأبيات من الكامل ذى التفاعيـل الطويلـة فـى الحركات (///٥//٥) إلا أن الكلمات المكونة لهذه التفاعيـل قصـيرة مثل: (برق، حى، أهلى، جفا، عنى، قل، لهم، إلى، متى، طال، أجـلا، كم، الشوق، المبرح، قلبى، يوم) يدل هذا على سرعة الحالة النفسية واضطرابها وعدم بطئها وأنه فى حاجة إلى اسـتجابة سـريعة مـن قومه وأهله لنجدته من الغربة.

– وهو لا يرضى عن دمشق وطناً بديلاً حتى ولو أصبح ملكاً عليه يقول[1]:

وكم قيل لى فى ساحة الأرض مذهب ... وعن وطن للنفس ميل إلى وطن

وهل نافعى أن البلاد كثيرة ... أطوف بها والقلب بالشام مرتهن

وما كنت بالراضى بصنعاء منزلا ... ولو نلت من غمدان ملك ابن ذى يزن

لكنه لما جاء إلى مصر قرَّ الله بها عينه ووجدها بديلاً عن وطنه فاتخذها مقاماً ومستقراً بدليل حنينه الشديد إليها بعد عودته إلى دمشق.

– ويتصبر عن دمشق حتى تقيض له الأحوال، ويتاح لها التغيير فى رجالها، حينئذ يرجع إليها، يقول مخاطباً أخاه الذى دعاه إلى العودة[2]:

وتقول أهل دمشق أكرم معشر ... وأجلهم ودمشق أفضل منزل

وصدقت إن دمشق جنة هذه الـ ... ـدنيا ولكن الجحيم ألذ لى

هيهات أن آوى دمشق وملكها ... يعزى إلى غير المليك الأفضل[3]

ويتضح أنه كانت له مواقف سياسية رافضة لحكم بعض بنى أيوب فى دمشق، بينما كان يفضل ويؤيد آخرين منهم.

---

(١) الديوان ص: ٧٨.صنعاء باليمن ، غمدان :قصر عظيم بصنعاء

(٢) الديوان ص: ٨٤.

(٣) الملك الأفضل هو على بن صلاح الدين الأيوبى.

- اتخاذ ذكر الكواكب والنجوم حنيناً إلى وطنه، يقول متشـوقا إلى دمشق(١):

ألا ليت شعرى هل تبيت مغذة	ركابى ما بين النعائم والنسر(٢)
تجاذب ما بين المناظر ناظرا	مريعا وتتلو مغرب الطائر النسر
وترتع من روض الحمى فى مراتع	أريت بها الفرغين فى مطفئ الجمر
ولازمها سعد السعود وصحبه	إلى أن تلاقى الضب والنون فى وكر
وأهدى لها الوسمى سبعا وسبعة	طلوع الزبانى قبل ذاك مع الفجر
فما بسطت كف الخضيب بنانها	على الأرض إلا وهى موشية الأزر
فلا حبرات العصب من نسج حمير	حكتها ولا ما وشع القبط فى مصر

فالأبيات تركيز خالص من الشاعر على الكواكب والنجوم مثل: النعائم وهو من منازل القمر، والنسر وهو نسران نسر الواقع ونسـر الطائر، والفرغان وهما فرغا الدلو، ومطفئ الجمر وهى أيام العجوز قاسية البرد، وسعد السعود، والضب، والنون، والوسمى، والزبـانى، والخضيب.

فظاهره هيامه بالنجوم والكواكب تدل على عدة أمور:

- أنه يحاول أن يجد فى الكون بكواكبه ونجومه إحساسـاً بالوحـدة والغربة فهى ترافقه عوضا عن الناس فى وحدته وسهره الليل.

---

(١) الديوان ص: ٨٧، ٨٨.

(٢) مغذة: الإغذاذ: الإسراع فى السير - اللسان جـ ٥/ ٣٢٢٢.

- الدلالة على الحنين الشديد للوطن، يريد أنه إذا كانت الأرض والمسير فى طرقاتها وبلادها يحول عن مجيئه لوطنه، فيتمنى أن يسير بين النجوم؛ ليصل إليه أو ليطلع عليه، فليست هناك حواجز فى السماء بين النجوم، فربما يكون فيها منطلق إلى دياره.
- أنه يرسل حنينه إلى النجوم كى تصله إلى وطنه؛ لأن النجوم تطلع عليه وتبدو فى سمائه.

والنجوم والكواكب تمثل بعداً مكانيا لا يمكن الوصول إليها مثل الوطن الذى يستحيل الرجوع إليه فهى معادل موضوعى له. يقول[1]:

أيبعد مقامى فى دباوند أبتغى ... دمشق لقد حاولت عنقاء مغرب[2]

وما قبضت كفُّ الخضيب على يدى ... ولا حطت فوق الطائر النسر مركبى

فيا حبذا قوم هناك وحبذا ... من الأرض غربى الحدالى وغُرب[3]

لئن أشرفت بى فى الشآم ثنية ... أرى كوكبا من فوقها مثل كوكب[4]

وانظر فى الأبيات كيف جعل (كف الخضيب) فاعلاً وليس مفعولاً، وكان من الممكن أن يقول: وما قبضت كفَّ الخضب يدى، أى أنه هو الذى ينال النجوم ويصل إليها، لكنه جعل النجوم هى التى تسعى إليه، وهذا يوحى بالكبرياء ورفعة الشأن، وأنه لن يعود إلى

---

(١) الديوان ص: ٨٨.
(٢) دباوند: بلدة فى الرى.
(٣) الحدالى: موضع بالشام، وغرَّب: اسم جبل بالشام.
(٤) كوكب الأولى فى الشطر الثانى اسم قلعة من قلاع الجبل المطل على مدينة طبرية.

دمشق تذللا أو فى موقف صغار أو ضعف، بل سيعود إليها فى شمم وأنفة عالى المقام، عاد وقد نال النجوم.

فظاهرة وصف الكواكب والنجوم فى شعر الحنين تمثل الصراع النفسى لدى ابن عنين بين واقعه فى البعد وعجزه عن العودة ووصفه الكواكب بهذه الكثرة يمثل أيضا روح مقاومة العجز عن الإياب لوطنه، حيث يرى أن النجم فى السماء منفردا وحيداً حاله كحاله فى الوحدة والغربة، وهو الأمل المنشود، لأنه هو الذى يطل على وطنه وينوب عنه فى هذه الإطلالة.

- اتخاذ مطلع الحنين مقدمة لقصائده وحتى ولو لم تكن فى غرض الحنين يقول فى مطلع قصيدة يمدح بها الوزير بن شكر[1]:

خبروها بأنه ما تصدى لسلو عنها ولو مات صدا

والضمير هنا لدمشق وطنه. ويقول فى مطلع قصيدة أخرى[2]:

لو أن غير الدهر كان العادى لتبادرت قومى إلى إنجادى

ويقول فى مطلع آخر[3]:

رعى الله قوما فى دمشق أعزة علىّ وإن لم يحفظوا عهد من ظعن

(١) الديوان ص: ٤٩.
(٢) الديوان ص: ٦٢.
(٣) الديوان ص: ٧٧.

ويقول فى مطلع آخر أيضاً[1]:

أأن حن مشتاق ففاضت دموعه غدت عذل شتى حواليه تعكف

ومقدمة الحنين تثير مشكلة الغربة والاغتراب، وهى مشكلة تسيطر على قلبه وفكره وشعوره، حيث يبدو الشاعر فى هذه المقدمات وحيداً مهزوماً يواجه النفى، وهو يحاول أن يستعين بالآخرين مثل الممدوح ليلفت انتباهه إلى حالة المعاناة النفسية التى يعيشها، أو بأهله فيطلب منهم النجدة ولو بالتفكير فيه وتذكره، وهو فى هذه المقدمات يركز على افتقاد الوطن ومحاولة استرجاعه.

ولا يترك موقفا إلا وحن إلى دمشق حتى ولو لم يكن فى غرض الحنين، فهو يحن إليها وقلبه معها فى مواطن الحرب، يقول فى المعركة التى خاضها آل أيوب فى الدفاع عنها[2] ولم يكن حاضرها آنذاك:

ألبستها مجدك الضافى فبات لها ذيل على منكب الجوزاء ينسحب

وكم رددت العدى عنها بغيظهم وأكبد القوم للأحقاد تلتهب

إذا كتائبها عن نصرها قعدت فى حادث جلل قامت به الكتب

كثرتهم فى دمشق وهى خالية وقد أناخ عليها الجحفل اللجب

(١) الديوان ص: ٨٣.

(٢) الديوان ص: ٤٨.

كتائب أضحت البيداء متأقة ... منها وضاقت بها البطنان والحدب[1]

يقودهم من بني أيوب كل فتى ... ماضي العزائم لا نكس ولا نغب[2]

أسد مخالبها بيض الظبى ولها ... من الذوابل غيل نبته أشب[3]

حتى إذا أشرفت منهم دمشق على ... حرب لها الويل من عقباه والحرب

منحتها منك عزما صادقا خضعت ... له ظبى الهند والخطية السلب

رأيك فيها راية طلعت ... بالنصر فانجابت اللأواء والكرب[4]

وبات أثبتهم جأشا وأحزمهم ... رأيا وأمضى سلاحا عزمه الهرب

والضمير فى (ألبستها) يعود إلى دمشق، وفى (رددت العدى) يرجع للقائد الوزير ابن شكر، والقصيدة تذكرة أصيلة لبائية أبى تمام فى عمورية والذى يؤكد أن ذكره لدمشق كان نوعا من الحنين الخفى عدة أمور تتضح من الأبيات منها: أن قلبه معلق بها ومعها فى أوقات المحن، أنه يجعل هذا رداء ومجدا لها وعاطفته الحانقة على أعدائها وفخره بمن انتصر لها من رجالاتها. ويدل على ذلك أننا لو نظرنا نظرة كلية فى القصيدة نجده يقول إن هذا لنصره يذكره بصباه وشبابه فيها ويعيد إليه مجده حينما كان ينعم بترابها وخيرها، وإن

---

(١) التأق: شدة الامتلاء، اللسان ١/ ٤١٢،

(٢) النكس أى غير مطأطئ الرأس، أو ليس به ضعف أو عجز. اللسان ٦/ ٤٥٤٠ والنخب: الجبان وضعيف القلب. اللسان جـ ٦/ ٤٣٧٣.

(٣) الأشب: الملتف أو شدة التفاف الشجرة وكثرته حتى لا مجاز فيه. اللسان جـ١/ ٨٤، والأشب تصوير للكثرة الشديدة للرماح والحراب والسهام حتى أصبحت من كثرتها كالشجر الملتف لا يستطيع أحد الدخول فيه أو مجاوزته.

(٤) اللأواء: الشدة والمشقة. اللسان جـ ٥/ ٣٩٧٨.

هذا الانتصار جعله مستريحا فى غربته آمنا مطمئنا عليها بهزيمتها لأعدائها، وما ذلك إلا نعمى أضفاها القائد المنتصر ابن شكر عليه، مما يوحى بإخلاص الشاعر واعتزازه بوطنه وصدق عاطفته ولفت نظر ابن شكر إليه لإنقاذه من محنة الغربة، يقول فى ذلك[1]:

ضفت ملابس نعماه علىَّ فقد ... ردت بها لى أثواب الصبى القشب

وبت خلوا من الأمال واتصلت ... بينى وبين العلى من بابه نسب

الحنين إلى الأماكن والبلدان: والحنين إلى الأماكن والبلدان يمثل إدراك ابن عنين لقيمتهما وتعبيراً عن روح الانتماء لتلك الأرض التى ولد وتربى فى ربوعها؛ ولذلك ارتبط الحنين بذكرهما ووصفهما، فهما جزءان من الوطن ومن حياته، يقول متذكراً المواضع الشامية ويحن إليها[2]:

عسى البارق الشامى يهمى سحابه ... فتخضل أثباج الحمى ورحابه

وتسرى الصبا فى جانبيه عليلة ... كما فتقت من حضرمى عيابه

فيا من لراح أن تبيت مغذة ... ببيداء دون الماطرون ركابه[3]

إذا جبل الريان لاحت قبابه ... لعينى ولاحت من سنير هضابه

وهبت لنا ريح أتتنا من الحمى ... تحدث عما حملتها قبابه

---

(١) الديوان ص: ٤٩.

(٢) الديوان ص: ١٩، ٢٠.

(٣) مغذة : أى سريعة.

وقامت جبال الثلج زهراً كأنها بقية شيب قد تلاشى خضابه

ولاحت قصور الغوطتين كأنها سفائن فى بحر يعب عبابه

وأعرض نسر للمصلى غدية كما انجاب عن ضوء النهار ضبابه

فالمواضع التى يتشوق إليها فى هذه القصيدة كلها شامية دمشقية مثل: (أثباج الحمى، الماطرون، جبل الريان، جبل سنير، جبال الثلج، قصور الغوطتين، نسر المصلى وهى قبة المسجد الأموى التى تسمى بقبة النسر).

لكن ما الأثر النفسى لهذه الغربة المكانية السابقة؟

يتضح ذلك أنه أعقب هذه الأبيات بنهاية يقول مبينا هذا الأثر[1]:

لثمت الثرى مستشفيا بترابه ومن لى بأن يشفى غليلى ترابه

فهو يتمنى العودة حتى يقبل تراب وطنه ليشفى به من أوجاع غربته.

ويتطلع للعودة إلى بلاده، فيذكر أماكنها ومواطنها قائلاً[2]:

فيا حبذا هناك وحبذا من الأرض غربى الحدالى وغرب

لئن أشرفت بى فى الشآم ثنية أرى كوكبا من فوقها مثل كوكب

---

(١) الديوان ص: ٢٠.

(٢) الديوان ص: ٨٩، ٩٠.

ولاح سنير عن يميني كأنه سنام رغيب فوق غارب مصعب

ولاحت جبال الثلج زهراً كأنها ضياء صباح أو مفارق أشيب

وشامت قلوصي من حمى تل راهط رياضا حكت وشي اليماني المعصب

فكوكب اسم قلعة الجبل المطل على بحيرة طبرية، والحدالى موضع بالشام، وغرب اسم موضع أو جبل دون الشام، وثنية طريق العقبة بالشام، وسنير وجبال الثلج وتل راهط أماكن بالشام.

وجواب لئن فى الأبيات السابقة هو هذا البيت بعدها الذى يبين نفسية الشاعر من تمنى لقاء هذه الأماكن يقول[1]:

غفرت لدهري ما جنى من ذنوبه وأصبحت راضي القلب عن كل مذنب

والصور التى صور بها الأماكن فيما سبق وهو فى حال عودته إليها صور مبهجة عليها الفرح والحبور، تارة يصورها بالسنام الرغيب أى السمين أى أنها أماكن عمها الخير والرخاء، وتارة بضياء الصباح أى أنها ليست مظلمة أشرق عليها النور كناية عن انبلاج الحق وتارة بالرياض أى أن من بها منعم فى خيرها.

وفى النموذجين السابقين كان حراك المكان فى الأبيات إلى الأمام بمعنى أنها أمامه يتمنى السير إليها ليصل إلى وطنه، فهو ينظر إلى المستقبل والأمل ليراها وينعم بها، أما الحراك الخلفى فهو

(١) الديوان ص: ٩٠.

أن يترك الأماكن خلفه لتكون ماضياً لا يرجع إليها بل ليعود إلى الوطن، ويتضح هذا الحراك الخلفى من قوله[1]:

متى أنا فى ركب يؤم بنا الحمى خفاف ثقال بالأمانى ظهورها

تظن ذرى لبنان والليل عاكف صديع صباح من سراها يجيرها

وقد خلفت رعن المداخل خلفها ونكب عنها من يمين سنيرها

فهو يتطلع لرحلة تعود به إلى بلاده فيمر بهذه الأماكن (جبال لبنان، ورعن المداخل وهى هضاب لبنان) فنصبح بعد أن يمر بها خلفه وهو متجه إلى دمشق.

والقيمة الفنية لهذا الحراك الخلفى يوضحه فى البيت الذى تلا البيتين السابقين، يقول[2]:

فيفرح محزون ويكبت حاسد وتبرد أكباد ذكى سعيرها

وما هذا المحزون إلا الشاعر نفسه والآخرون هم خصومه وأعداؤه.

ومما سبق يتبين أن الأماكن تلتصق بنفسية ابن عنين واهتمامه بذكرها لدلالة على التعبير عن دواخله فى التعلق بها

---

(١) الديوان ص: ١٧.

(٢) الديوان ص: ١٨.

وحبها، إنه تفاعل مع المكان مع تنوعه من قلعة، وجبل، ونهر، وقرية؛ فالمكان يكتسب قيمته من سحر الغرض الشعرى وهو الحنين ولذا يصير جزءاً من المضمون، وهو مرتبط ومتعلق به يعيش فيه وجدانياً بعدما نفى وبُعد عنه، ويتضح الأثر الذى تركه، ومدى حبه له؛ أنه يذكره بإحساس القلق والمرارة، فهو جزء من كيانه وحياته، وهو يتعامل مع الأماكن والمواضع بحنينية شديدة ممزوجة بالمشاعر، يستعيد من خلالها حياته وأحلامه الماضية، وتصبح جزءاً منه تعيش حية نابضة بداخله، والرجوع إليها وذكرها يعد أملا لتجديد التواصل بها.

ولولا الرقة والوجدان الشعورى الذى لف قصائد الحنين التى أغرم فيها بذكر البلدان والأماكن، لاعتبرناها من الشعر الجغرافى التعليمى الذى يبين الأماكن والمواقع والأودية والجبال.

- وابن عنين لم يحن إلى أية بلدة نزل بها[1] – بل إنه هجا كثيراً من البلدان التى تغرب بها وصعب على مثله أن يحن أو يحب غير وطنه – إلا مصر، فهو يحن إليها حنيناً شديداً يعادل حنينه إلى وطنه، ولم يحن إلى بلد سواها، ومرجع ذلك أنه وجد بها الأمن والأمان تحقيقا لقوله تعالى:

---

(١) ارتحل ابن عنين وتغرب فى بلاد كثيرة منها بلاد العراق، والرى، وخوارزم، وبخارى، وخرسان، والهند، واليمن، ونيسابور.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ [1]

وتاجر بها وكثر ماله، وعوّض بها عن وطنه وقتا طويلا، وهى التى كسرت المد الصليبى الذى منيت بها بلاد الشام،، فرأى فيها الأمل والنصر المفتقد فى بلاد الشام.

فهو يذكرها ويحن إليها فى مواقف النصر التى شهدها على ترابها حينما هزمت جيوش الصليبين، وقضت عليهم فى دمياط، يقول[2]:

وأذكرته أيام دمياط بيننا	وبين العدى والموت تهوى عقابه[3]
وجيشا خلطناه رحاب صدوره	بجيش من الأعداء غلب رقابه
وقد شرقت زرق الأسنه بالدما	وأنكر حد المشرفى قرابه
وعرد إلا كل ذمر مغامس	ونكب إلا كل زاك نصابه[4]
تركناهم فى البحر والبر لحمة	تقاسمهم حيتانه وذئابه

ومن حنينه إلى مصر قوله من قصيدة كتبها إلى الملك المعظم الأيوبى من دمشق بعد أن عاد إليها وأرسلها له إلى مصر:

---

(١) سورة يوسف آية: ٩٩.
(٢) الديوان ص: ٢٠.
(٣) الضمير للملك العادل الأيوبى.
(٤) **عرد:** عرد الرجل عن قرنه إذا فر وأحجم ونكل والتعريد: الفرار والذهاب فى الهزيمة. اللسان جـ ٤/ ٢٨٧٢. **ذمر:** الذَّمر: الشجاع المنكر الشديد. اللسان جـ ٣/ ١٥١٥. **مغامس:** المغامس من الرجال الشديد الذى يرمى نفسه وسط الحرب اللسان جـ ٥/ ٣٢٩٨.

تحيـــة مشـــتاق بعيـــد مـــزاره أبـــى شـــوقه أن يســـتقر قـــراره

إذا نفحـــة مـــرت بـــه قاهريـــة ذكت فى الحشا بين الجوانح ناره

ومـا شـام مـن أعـلا المقطـم جفنـه سنا بـارق إلا توالـــــت قطاره

أحـن إلـى مصـر ويـا ليـت أن لـى إذا ذكـرت مصـر جناحـا أعـاره

وهذه الأبيات لا تختلف فى الشعور وحرارة العاطفـة وحرقـة الجوى وصدق الوجدان عن شعره الذى حن فيه إلى وطنـه دمشـق وهو مغترب؛ حيث أصبحت مصر وطنه الثانى المحبـب إليـه، ولـو حذفت كلمات (قاهرية، المقطم، مصر) من الأبيات مـا ظـن القـارئ الكريم أنها فى الحنين إلى دمشق كبقية شعره فيها.

- ويحن إلى ذكريات الشباب فى دمشق قائلاً[1]:

وزمانـاً مضـى علـى آبـل السـو ـق وليـل الشبـاب وحـف خدارى[2]

ومسـراتنا طـوال عـراض والليـالى قصـيرة الأعمـار

أجتلـى بنـت كرمـة خزنتهـا الـ ـروم دهـراً مـا بـين طـين وقـار

صـيد نائيـة المناسـب لكـن ـن أباها إذا اعتزى كان قارى[3]

---

(١) الديوان ص: ٧٥.

(٢) زماناً منصوب على العطف فى قوله (ثقالاً) فى بيت سابق وهو: فسـقى الله من آبل والمرج ثقالاً، وآبل السوق قرية من قرى دمشق، الوحف: الشـعر الأسود الكثير الحسن. اللسان جـ ٦/ ٤٧٨٥ وخدارى: أى شديد الظلمـة. اللسـان جـ ٢/ ١١١٠.

(٣) صيد نائية نسبة إلى صيد نايا بلد من أعمال دمشق، وقارى نسبة إلى قـارة من قرى دمشق.

من يدى كل مترف ساحر الطر ف جميل الأوصاف كالدينار

بجبين مثل الصباح منير تحت ليل تضل فيه المدارى

فهو يتذكر زمن الصبا والشباب وقتما كان يتعاطى الترف واللهو والأمن فى أيام ما أقصرها مرت عليه كالأحلام، وقد كنى عن قصر الليالى بقوله: "والليالى قصيرة الأعمار" وعن الشباب الذى لم يشوبه شيب وضعف بقوله: "ليل تضل فيه المدارى" والخمر رمز للفتوة والشباب والنعيم وكثرة المال، ولذلك وصف الذى يقدمها بالحسن والجمال.- ويحن إلى أيام الصبا قائلاً[1]:

فالله أيامى وغصن الصبا بها وريق وإذ وجه الزمان صقيل

هى الغرض الأقصى وإن لم يكن بها صديق ولم يصف الوداد خليل

فقدت الصبا والأهل والدار والهوى فلله صبرى إنه لجميل

فهو يأسف لأيامه الماضية، وهى أحسن عنده حتى ولو لم يكن بها أنيس أو صديق.

ويتشوق إلى معاهده وأترابه فى دمشق ويمزج ذلك بذكر الطيف، يقول[2]:

لطيفكم عندى يد لا أضيعها سأشكرها شكر الرياض يد القطر

تجشم أهوال السرى لا يصده مهيب ولا يرتاع من موحش قفر

---

(١) الديوان ص: ٧٠.

(٢) الديوان ص: ٨٠.

بــأرض يـحــار الركــب فــى فلواتـهـــا   على أن هادى القوم فيها القطا الكدرى

رعــى اللـــه أيامــا تقضــت بقـــربكم   وعصـر الصبـى يـا حبـذا ذاك مـن عصـر

فهو يتعجب – على عادة الشعراء القدامى – من قدرة الطيف على الوصول إليه مجتازاً كل هذه الصعاب، وما تلك الصعاب إلا الأخطار التى يعيش فيها الشاعر فى المنفى، والطيف يثير مشاعر الشوق التى تضطرم فى نفسه، حيث يتذكر الوطن ومعه أترابه ومعاهده، وتبدو الشكوى من الغربة والإحساس الحاد بالوحدة فى هذه البلاد النائية حيث تبعد المسافة بينه وبين وطنه.

ويشير إلى عدم استقراره فى أية بلدة نزلها[١]:

بينـــا أصــبح بـالسـلام محلــة   حتـــى أمســـى أهلهـــا بــــوداع

أبـــدا أرقـــم كـــى أرقـــع خلــة   من حالـة مثـل الـردا المتـداعى

فهو ما يلبث أن يحل ببلد فى الصباح، وقد وجد فيها الأمن حتى يودع أمنها واطمئنانها إلى بلد آخر، ربما يكون فيه الخوف والهلاك، وفى كلمة (أصبح) إشارة إلى أنه يسير ليلاً فى الظلام حتى يأتى هذه البلدان، وتوحى (أمسى) بأنه يودع هذه البلدة مساء ليسير ليلاً ويصل فى الصباح إلى أخرى، وهذا من جمال الطباق الذى تتوحد فيه الدلالة المعنوية أى أنه يواصل المسير ليلاً ونهاراً لا يستقر فى مكان.

---

(١) الديوان ص: ٢٦.

والحالة تلك ليست مؤقتة بل مستمرة، فهو يرقح أمره والترقيح هو: "إصلاح العيش والكسب والاحتيال والطلب"[1] ويصلح خلته، والخلة "الحاجة والفقر"[2] بمعنى أنه افتقر وذهب ماله ولا فائدة من الترقيح فهو مثل ترقيع الثوب البالى.

وهو لا يقصد الفقر المادى وهو ذهاب المال بل الفقر النفسى فى حاجة النفس إلى الحماية والراحة والأمن والاستقرار.

وإصلاحه فى أموره بمنزلة إصلاح الرداء الخلق البالى إذا رُقع شىء منه ما يلبث أن ينخرق آخر، وهكذا؛ فهو ثوب لا قيمة ولا فائدة من ترقيعه، وكذلك حاله، ويمكن أن يكون المراد أن تنقله فى البلدان يشبه ترقيع الثوب فى قطعه، وبعد قليل يتركها ليرقع أختها أو تنقل الحائك فى ترقيع الثوب من رقعة إلى أخرى ومهما حاول الترقيع فيه لا يجدى معه إصلاح بل النتيجة تداعى وتهالك الرداء كاملا.

ويدعو للوطن بالسقيا قائلا[3]:

فسقا الله بين آبل والمر ج ثقالاً من الغوادى السوارى

كل وطفاء تحسب الرعد فيها بعد وهن تجاوب الأَطيار

وربا عزتا وقد جادها الثلـ ج ولاحت من سائر الأَقطار

---

(١) اللسان جـ ٣/ ١٧٠٢.
(٢) اللسان جـ ٢/ ١٢٥١.
(٣) الديوان ص: ٧٥.

والسقيا هنا فى قصيدة الحنين إذا كانت تمثل تغيير الطبيعة بنماء الأرض واخضرارها، فإنه ربما يقصد تغيير الناس بدمشق أيضا، فكما غير المطر الأرض، هناك نجوى فى نفسه أن يتغير من يحكم دمشق حتى يتمكن من الرجوع إليها.

– وشعوره وعاطفته نحو وطنه لم يتغير على الرغم من كثرة المتاعب التى لقيها فى النفى، فلم ينقم عليه، وظل وفيا لتراب أرضه يقول فى الحنين إلى دمشق[١]:

لولا ادكارك تل راهط والحمى	ما سح جفنك بالدموع ولاهمى
أنى اتجهت رأيت روضا محدقا	بشفا غدير كالمجرة والسما
يا أهل ودى بالشآم تحية	من نازح لم يبق فيه سوى ذما[٣]
قد غيرت غير الليالى كل حا	لاتى وشوقى والغرام هما هما

فشعوره نحو وطنه ثابت لم تغيره الشدائد، لكنه شعور المغترب الحزين.

– أما شعوره نحو البلاد التى اغترب فيها فهو شعور الناقم الغاضب اليائس من خير هذه البلاد وأهلها، فقد لقى فيها العناء والتعب، فهو يدعو على بلاد الهند بالويلات قائلاً[٣]:

---

(١) الديوان ص: ٧٩.

(٢) **الذما**: بقية النفس، أو بقية الروح فى المذبوح. اللسان جـ ٣/ ١٥١٨.

(٣) الديوان ص: ٧٩.

وإذا سقى الله البلاد فلا سقى بلد الهنود سوى الصواعق والدما

وكان يتخذ من بعض الرجال نصيرا له لمواجهة صلف الأيام وظلمها فى هذه البلاد يقول[1]:

وشكيتى بعد النجيب فإنه قد كان لى من جور أيامى حمى

عهدى بأنياب النوائب عنده درراً وظفر الحادثات مقلما

كم مد صرف الدهر نحوى كفه لظلامة فثنناه عنى أجزما

والنجيب هذا رجل كان فى بلاد الهند أحسن نزل الشاعر عنده ووقف معه فى النائبات، ثم رحل عنه، فتعاظمت عليه المصائب بعد ذلك.

ومن شعوره الأسيف نحو بغداد بعد أن جاء إليها[2]:

سأرحل عن بغداد فى طلب العلى إلى بلدة يحنو علىَّ أميرها

إلى بلدة فيها الكلاب تخالها نموراً وما ردت إليها أمورها

وقد هجا بخارى وخوارزم، وقارن أنت بين هذا الشعور وشعوره نحو مصر التى أحبها وحن إليها حنيناً شديداً بعد رجوعه إلى دمشق يفوق حنينه إليها[1].

---

(١) الديوان ص: ٧٩.

(٢) الديوان ص: ٢٣٤ هامش المحقق.

ويشكو من طول الاغتراب قائلاً[٢]:

فإلى متى أنا بالسفار أضيع الـ أيـام بـين الشـد والإيضـاع

حلف الرحالة والدجى فـروا حلى مـا تـأتلى ممعوطـة الأنسـاع

فهو يتساءل مستنكرا عن حالة سفره إلى أية غاية ذاهب فيه، فقد ضاعت أيامه، وانظر إلى كلمة (السفار) التى اختارها ولـم يقـل (السفر)، لأن الأولى تبين أنه رجل ذو سفر طويل أى ملازم له، وأنه ليس طارئا له، فقد أصبحت حياته كلها سفرا، وأنه واحد فيه ليس له صاحب أو أنيس. وانظر إلى الجمال الفنى فى جمعه نوعين من السير أولهما: الشد وهو "الإسراع والعدو"[٣] ويكون ذلك فى التنقل من بلـد إلى بلد آخر أو من مصر إلى مصر، وما فيه من المشـقة والعنـاء، وهو سير طويل مخيف يكون بالليل والنهار وثانيهما: الإيضاع وهـو "سير مثل الخبب أو السير بين القوم"[٤] ويكون هذا فى التنقـل فـى البلد الواحد أو القرية الواحدة بعد النزول فيها من بيت إلى آخر ومن أناس إلى آخرين. وانظر إلى هذه الصورة التى رسمها لنفسـه إنهـا صورة الغريب البائس الذى يسأل الناس، ويتنقل من دار إلى أخـرى طارقا بابها ومن رجل إلى آخر وقد أراق ماء وجهه، تارة يجد حاجته وتارة يمتنع ويمتهن، وهو فى كل هذا لا يجـد راحـة عنـد أحـد،

---

(١) ينظر ص: ٣٦ من هذا البحث.
(٢) الديوان ص: ٢٦.
(٣) اللسان جـ ٤/ ٢٢٥١.
(٤) اللسان جـ ٦/ ٤٨٥٩.

فرواحله مشدودة السير مستعدة للمسير، فهو يسأل النـــاس وســـير راحلته فى يده ليس له مكان يستريح فيه، إذن هو جمع فى الشكوى بين صورة التعب الجسدى بطول السفر واستمراره، وبـــين صـــورة التعب النفسى فى سيره بين الناس طالبا لحاجته فى غربة وشفقة.

ومن شكواه من النفى قوله الذى أرسله إلى الملك العادل (١)

أشكو إليك نوى تمادى عمرها	حتى حسبت اليوم منها أشهرا
لا عيشتى تصفو ولا رسم الهوى	يعفو ولا جفنى يصافحه الكرى

فذكر طول الأيام، وقلة النوم وتعكر صـــفو العـــيش وعـــذاب الهوى، وهى متاعب تثاقلت عليه فى الغربة.

الحنين والرمز: من الوسائل الفنية التى استخدمها فى الحنـــين الرمز وذلك أنه كان يترك النظم فى الحنين المباشر ويرمز إليه بعـــده رموز منها:

- استخدام نوح الحمائم تعبيراً عن آلامه وشجونه، يقول وقـــد سمع هديل حمامة وهو مغترب بسمرقند(٢):

دعت فى أعالى الصغد يوما حمامة	على فنن فى ظل ريان كاليم(١)
فهاجت مشوقا واستفزت متيما	وأبكت غريبا واستخفت أخا حلم

(١) الديوان ص: ٨.

(٢) الديوان ص: ٩٠.

فالحمامة رمز للحرية المفقودة عند الشاعر، وهى تثير بنوحها جراح المغترب وهمومه، وتمثل له حلم العودة إلى الوطن.

السقيا للوطن فهو يدعو لديار وطنه بالسقيا ونــزول المـــاء، والمطر رمز للرحمة والنماء والخير والبركة التـــى يتمناهـــا لأرض وطنه كمكان مجرد من البشر، وإلا فأنت تراه يهـــاجم ويهجـــو مـــن بدمشق من أناس، فكيف يتمنى لهم السقيا؟ إذن السقيا رمز موجـــه إلى الأرض والوطن وترابه. يقول(٢):

فسقى دمشق وواديبها والحمى   **متواصل الإرعـاد منفصم العـرى**

حتـى تـرى وجـه الريـاض بـعـارض   **أحـوى وفـود الـدوم أزهـر نيـرا**

ومن خلال الرمز يتمنى عودة أيامه الماضية فى تلـــك الربـــوع، ويؤكد ويقوى أن الرمـــز يركـــز علـــى المكـــان (الأرض) لا علـــى الشخصيات والصحاب قوله بعد ذلك(٣):

وأعـاد أيامـا مضـين حميـدة   **ما بين حرة عالقين وعشترا(٤)**

أرض إذا مـرت بـهـاريـح الصـبا   **حملت على الأغصان مسكا أذفرا**

---

(١) الصغد: جبل معروف بسمرقند. اللسان جـــ ٤/ ٢٤٥٢.
(٢) الديوان ص: ٤.
(٣) الديوان ص: ٤.
(٤) عالقين قرية بدمشق، عشترا موضع من أعمال دمشق.

فسقيا الوطن تعد دعاء إلى الله فى أوقات المحنة فكما يطلب الإنسان السقيا للأرض والحيوان فى أوقات غياب الماء، فيكون السقيا بمنزلة النجاة وعودة الحياة كذلك السقيا فى شعر الحنين هو حلم العودة إلى الوطن كما تعود قطرة الماء إلى الأرض فتحيها.

- ذكر الظواهر الكونية يقول[1]:

فكم ليلة قد بت لا البدر مشرق يضئ لرائيه ولا النجم غارب

فالبدر رمز للوطن والعودة إليه؛ ولذا صاغ الشاعر نفسه فى صورة الغائب فى الضمير فى لفظة (لرائيه)، فذات الشاعر غائبه كوطنه المفقود، والبدر كما هو معروف يحل بعيداً فى السماء فالشاعر ينظر إليه ليعبر عن بعد وطنه عنه كبعده مكانا وزمانا وهو يكنى عنه بطول ليله وهمه فى انتظار العودة للوطن التى يمثلها عودة البدر فى السماء.

- المحبوبة رمز للوطن يقول مخاطبا نفسه وقد أنزلها منزلة الغائب[2]:

يهيم شوقا بأقمار على قضب ملد تجاذبها ظلما لها الكثب

من كل واضحة اللبات تبسم عن مرتل زانه التأشير والشنب

يا ضرة الشمس إن الحب أبعدنى فليت شعرى بماذا منك أقترب

---

(١) الديوان ص: ٣٥.

(٢) الديوان ص: ٤٥.

والبيت الأخير رمز واضح للدلالة على وطنه حيث جعل المحبوبة تعادل الشمس وتناظرها فى بعد منازلها وعظمتها ومنفعتها، وكما أن الحياة لا تستقيم من دون الشمس كذلك حياته لا دوام لها بعيداً عن وطنه، فالمحبوبة هنا هى الوطن والأرض.

- التغزل بغير العربيات، فهو يعكس على الغزل غربته وحنينه، وغزله بالتركيات جعله رمزاً للسخرية من نفسه فى الغربة التى لا تحب العجم، فكيف يتغزل بنسائهم، مما يدل على تعلقه وحنينه الشديد للعربيات وافتقاده لهن، وإن كان الغزل بالتركيات هو ثورة نفسية يعلن فيها أنه لم يعد بحاجة إلى العربيات يقول[1]:

لا تعرضن لضيق المقل ... فتبيت من أمن على وجل

واترك ظباء الترك سانحة ... لا تعترض لحبائل الأجل

فمتى يفيق وفيك نافذة ... مشحوذة بالسحر والكحل[2]

لا يوقعنك عذب ريقتها ... أنا من سقيت السم فى العسل

بيضاء تنظر من مضيّقه ... سوداء تهزأ من بنى ثعل[3]

---

(١) الديوان ص: ٤٠، ٤١.

(٢) الوقذ: شدة الضرب. اللسان جـ ٦/ ٤٨٨٦.

(٣) بنى ثعل: بطن من بطون العرب وقيل بطن من طئ وهم الذين قصدهم امرؤ القيس:

رب رام من بنى ثعل ... مخرج كفيه من ستره

ويتغزل بالنساء من خارج الأرومة العربيـــة، ويعـــرض عـــن التغزل بالمرأة العربية التى ترك ديارها وأبعد إلى بلاد العجم، فيتجـــه إلى التغزل المرأة التركية لكنها تعرض عنه ولا ترضى به مما يرمـــز إلى حالته النفسية المحبطة وأنه متعب لا يجد السكينة، وأن الوشـــاة كما لا حقوه فى وطنه يلاحقونه فى ديار العجم يقول[1]:

يـا ظالمـا جعـل القطيعـة مـذهبا ظلمـا ولـم أر عـن هـواه مـذهبا

وأضـاع عهـداً لـم أضـعه حافظـا ذمم الوفـاء وحال عن صب صبا

ظبـى مـن الأتـراك تثنـى قـده ريم الصبا ويعيده لين الصبى

عجبـا لـه اتخـذ الوشـاة وقـولهم صدقا وعاين ما لقيت وكذبا

فالتغزل بالتركيات يوحى بأن طيف المحبوبة العربيـــة مـــا زال يلازمه مع قسوة افتقاده، وفيه رمز لتصـــوير المعانـــاة والحرمـــان والشوق للمرأة العربية التى هى رمز لمنح القوة ومواجهة الغربة.

- الرحلة: يقول ابن عنين[2]:

كـم ليلـة كـالبحر جبـت ظلامهـا عـن واضـح الصبـح المنيـر فأسـفرا

فـى فتيـة مثـل النجـوم تسـنموا فـى البيـد أمثـال الأهلـة ضـمرا

بـاتوا علـى شـعب الرحـال جوانحـا والنـوم يفتـل فـى الغوارب والـذرى

متـرنحين مـن النعـاس كـأنهم شربوا بكاسات الوجيف المسكرا

---

(١) الديوان ص: ٣٨، ٣٩.

(٢) الديوان ص: ٥٠.

قـالوا وقـد خـاط النعـاس جفـونـهم أيـن المنـاخ فقلت جدوا فـى السرى

فالأبيات تصور رحلة سواء كانت حقيقيـة أو وهميـة، وهـذه الرحلة قامت بدور الرمز عن واقعه المشتت حيث لم يجد له مستقرا فى البلاد التى كان ينزلها، فما زال الترحال به من بلد إلى آخر.

وقد صحب فتية اهتدى بهم اعتلوا سنام الإبل التى ضمرت من شدة المسير وطوله وملأهم الكلال والشقاء على سنامها حيث قطعت وشقت بهم الصحراء مواصلة الليل بالنهار وهم علـى ظهورهـا لا يبرحونها.

والليل فى الرحلة رمز لهموم الشاعر وكآبة المنظـر وحالتـه النفسية المظلمة، والصبح رمز لشوقه فى الوصول إلـى الاسـتقرار النفسى والتخلص من حالة الاغتراب.

وهؤلاء الرجال قد باتوا ليلهم على رحال الإبل متمايلين عليهـا من التعب وعدم الاتزان، فالنوم قد تملك عليهم أجسادهم وأخذ يداعب أعينهم، فأصبحوا يتمايلون كأنهم شاربو خمر، لكن التمايل لـم يكـن من سكر الخمر بل من شىء آخر هو أنهم شربوا كاسـات الوجيـف والوجيف "ضرب من السير السريع"(١) فقد تخيل الشـاعر أن للسـير كاسات تشرب من شدة العناء حتى كأن عقولهم ضلت وذهبت من هذا المسير المبرح، ففقدوا التفكير السليم والـرأى الصـواب والاتجـاه الصحيح.

---

(١) اللسان جـ٦/ ٤٧٧٣.

واكتملت صورة السكر بقوله: "قد خاط النعاس جفونهم" فصوره الذى سكر لا تكتمل ولا يتم كمالها إلا بغلق العين كليا أو جزئياً كأنه نائم أو أخذ فى النوم.

وقد أبدع إيما إبداع فى قوله: "قد خاط النعاس جفونهم" حيث تخيل حالة النعاس بعملية الخياطة للثوب، وانظر إلى الطرافة، فأهداب العين وشعرها بمنزلة الخيط أو سلك الخيط فى عملية الحياكة، وجفنا العين مثل شق الثوب أو طرفى القماش.

وينتهى الرمز بالرحلة فى قوله: "أين المناخ فقلت جدوا فى السرى" فجدوا فى السرى تدل على عدم انتهاء المسير، وأنه ما زال طويلا لا آخر له، وهنا نجد الصورة الرمزية ترمز إلى انفتاح الآمال أمام الشاعر فى الرحلة والسير بلا حدود لهذه القافلة، بمعنى أنه لم يصل إلى نقطة الاستقرار والانتهاء فما زال فى تيه النفى والغربة.